إسمها المحبة

بقلم عادل ابو شنب

كنت اشعر ، وقت استقبلتني شجرة الجوز الضخمة الممتدة الاغصان، انني أتحول شيئا فشيئا الى جثة . كان وجهي يزداد اصفرارا ، ويداي تتصلبان ، وقلبي يكف عن الخفقان .

وكانت السماء ، وقتئذ ، تعتكر البكاء .

✶

شيء مذهل ولكنه حقيقي كالقدر .. ان اتذكر الان كل شيء ، حتى التفاصيل .

انسفت وريقات القصة الخضراء القصيرة على صفحة ذهني تهتز مع النسيم اهتزازا عصبيا مستمرا ، يوقظ في صدري الحزن والفرح القديمين المكبوتين ، وكانت رائحة البرية تتسلل الى انفي طرية دافئة غير منظورة كأنها حب ينام ويستيقظ في الاعصاب .

لماذا كنت أركض ؟

كانت قدماي تحدثان في تناوب ارتطامهما بالارض المعشوشبة صوتا جافا رتيبا ، وفي اغلب اللحظات مخيفا ، ولقد خلت بسبب من ركضي بهذه السرعة غير المحدودة ان عظامي قد تهاوت من جسدي ، وانني اصبحت طريا ، مائعا ، رجلا بلا عظام . كنت حائرا منذ غادرت منزلنا الجديد في المهاجرين بهذا الحزن غير المحدود الجاثم على صدري هذا المساء ، يلتهم طمأنينتي كلما قذفتني قدماي خطوة جديدة الى حيث شجرة الجوز ذات الاغصان الطويلة التي اعتدت ان القى هيفاء تحت ظلالها . كنت احب هذه الصبية الارستقراطية البيضاء اللون كالحليب ، التي يعيش في عينيها نعاس مستديم يزيد من جمالها ، ولقد خلفت ورائي من اجلها كل الحكايا القديمة ، ووقفت قلبي عليها وحدها .. لايدق بعنف الا عندما تستقبلني ذراعاها وشفتاها وكل شيء جميل فيها ..

اذكر جيدا ...

كنت اركض ، ربما لانني لم اعتد ان اتاخر يوما عن موعدها ، وكانت الريح تحمل الى وجهي صفعات باردة كانها صفعات سوط مبتل بالماء، ولم اكن لاشعر بالوهن ، وحتى قطرات المطر الهزيلة المحمولة من جبل قاسيون .. لم تحرك في وجهي عضلة ما . لقد كنت مدفوعا بقوة غير منظورة الى الركض .. الركض الى حيث شجرة الجوز ، ووطننا الاوحد كما تقول هيفاء ، وكنت في عدوي شبيها براية مصممة على الاستمرار في المضي الى الامام .

كان علي ان اجتاز حقل الفصه الذي يعرفني منذ يفاعتي حق المعرفة واصعد التل الصغير لاصل الى حيث هيفاء تنتظرني ، واذ اجتزت الجزء الاكبر من الحقل ولاحت درب صغيرة ، ضيقة ، مسورة باغصان من توت السياج الاخضر رايت مهدية لائذة بالدك الترابي القصير القامة ... ترتجف من البرد ..

كانت مفاجأة غير متوقعة .

ولو انني لم امل برأسي ناحية الدرب الضيقة لما رايت مهدية ، ولكنت مضيت في الركض ..

وتوقفت كأنما شددت الى الارض بارطال من الحديد ، وحدقت فيها ، ولم استطع ان اقول كلمة واحدة قط .

كانت مهدية تقف في ارض الذكريات كأنها عروس كئيبة فقدت زوجها ليلة العرس : قامة نحيلة تهتز كقصبة تجابه الريح ، وعينان حزينتان تحملان في غبش المساء الذي كان يلون الاشياء والاشكال بلون قاتم ... شعورا مضيئا بالخزي والحقد ، ولقد أعددت نفسي لاقف وجها لوجه امام شيء من ماضي الجميل احيانا ، ولكنني لم استطع ان انجو من غزوة من الرعشات الباردة اجتازت صفحة بدني المكسو جيدا ، ومن غزوة اخرى من الشجن حفرت علامة جديدة في جبهتي الملأى بالعلامات .

قلت :

ـ انت ؟ مهدية ؟

قالت :

ـ انا .. مهدية ..

بتحد .. كأن ساعة فاصلة في تاريخ سنيها القليلة قد ازفت .

وتحسست ، وانا اقطع المسافة القصيرة التي كانت تفصلني عنها، جبهتي الباردة كجبهة رجل مات منذ دقائق ، وقذفت بخصلة الشعر السوداء ، الرومانتيكية كما تسميها هيفاء ، المرمية على جبهتي الى الاعلى، وقلت :

ـ لماذا خرجت هذا المساء يامهدية ؟

قالت :

ـ ولماذا لاأخرج ؟ اليست هي الارض نفسها التي عرفتني وعرفتها منذ ولدت ؟

قلت :

ـ بلى . ولكن الدنيا برد كما ترين .

قالت :

ـ خرجت في البرد قبل الليلة كثيرا .

قلت :

ـ اكبر الظن ان هروبك من الحوش ، هذه العشية ، سيثير في قلب امك اسى وقلقا كثيرين . انت صغيرة يامهدية .

كانت مهدية صغيرة السن بالنسبة لي .. فعلا ، وما ازال اذكرها وهي تتعثر في مشيتها بين الخرفان والدجاجات المتروكة لشأنها امام الحوش الصغير الذي تسكنه مع اسرتها : امها واخوتها الصغار وذكرى

الاب الراحل ، وكان الحوش يقع في بداية حقل الفصة .. يطل من جانب على الشارع حيث تبتديء المدينة والمدنية ، ومن جانب على البساتين حيث الفلاحون والعرق والتعب والارض المعطاء .

قالت :

ـ لست صغيرة .

ولامر ما لم تزد بكلمة واحدة .

ولا ادري لماذا شعرت بالحرج والخوف . وللحظات خاطفة لم استطع ان أستوعب ماكان يجري على صفحة وجه مهدية ، ولكنني كنت المح وسط الضباب المساء وخيوط المطر التي تصل السماء بالارض اشباح دموع تركض من الفتحتين الجميلتين الواسعتين ، ولقد اشكل علي المشهد اول الامر ، فلم ادر اكانت تلك القطرات دموعا ام مطرا ، ولكن صوت النشيج قطع كل شك .

لم تكن مهدية ليبكيها شيء على الاطلاق . عرفتها كذلك منذ عرفتها . كانت صلبة .. في الظاهر ، مشاكسة كانها ولدت مع بقرتهم الحمراء المشاكسة من بطن واحدة ، ولكن صلابتها لم تنطو ، في يوم من الايام على قلب قاس .. وما كان ارقها وقت كانت تجلس في الاماسي المقمرة بين وريقات الفصة الندية .. تعد النجوم المعلقة في السماء كالقناديل بصوت حاد منغم ، وما كان ارقها وقت كانت تمد كفها الصغيرة الى شعري ، تمر بها عليه بليونة .. معجبة بنعومته التي لم توفرها الطبيعة لشعرها الاسود الطويل . ان كل شيء قد تبدل ، وها هي ذي تبكي ..

اذكر جيدا كل شيء ..

ضحكت مهدية وقت رأتني ، ذات يوم ، ببنطلوني القصير الذي كان يكشف عن جزء كبير من فخذي .. وبدا عليها الخجل ، فهي لم تألف ان ترى الفتيان بملابس معيبة كهذه ، ونشأ بيننا خصام عجيب متجدد، سرعان ماتحول بتكرار مجيئي الى حقل الفصة القريب من دارنا انئذ ، الى تفاهم صغير عميق ميدانه عيناي وعيناها الواسعتان الجميلتان .

ان راسي لمشحون الان بمئات الصور الصغيرة التي لارابط بينها ، ولكنني استطيع ان اميز في زخم هذا الحشد الهائل من الصور وجه مهدية الصغير الحلو ، وفمها المنمنم الذي كان ينفرج عن ابتسامة ملونة وقت كنت اطل عليها ، بعد ساعة انتظار مضنية تقضيها تحت ظلال شجرة الجوز الكبيرة ، كانت تفتح ذراعيها لي وتحتضنني ، وكانت تقول لي :

ـ ها هنا لايرانا احد قط . الا تحب هذه الشجرة الحنون كانها ام ؟

وكنت اقول :

ـ بلى . احبها .. احبها .

فتقول :

ـ هي لنا اذن . هي ملكي وملكك .

كانت مهدية لاتحب ان تنتظرني الا عند شجرة الجوز هذه ، ولقد حاولت اكثر من مرة ان امضي بها الى اي مكان اخر في البساتين الكثيرة المنتشرة على ضفاف نهر تورا ، ولكنها كانت تتشبث بالشجرة العجوز على نحو عجيب .

لم اعرف ، وقتئذ ، لم كانت تحب شجرة الجوز الوارفة الظلال تلك . ولكن عينيها الباكيتين اللتين كانتا ترنوان الى حيث هيفاء تنتظر ... قد علمتاني ان العواطف البدائية التي منحتنيها مهدية ذات يوم.. كانت بحاجة الى ان تلتصق في مكان معين لتخلد ولتصبح ذكريات عزيزة. ومن يدري ؟.. ربما كانت مهدية تتشبث بالمكان بسبب من هذا الدافع المبهم العائش في صدرها ، ربما كانت تحس انه ملكها فعلا ، ولكنني ، انا نفسي ، لم ارتبط بشيء : بارض او بزمن او بعاطفة . كنت اجلس الى جانبها فاقبلها قبلات صغيرة مختلسة ، او اتمدد بجسدي المتأجج ليلتصق بجسدها الحار الذي كان ينمو بسرعة وقتئذ ، او امد يدي الى صدرها ، ولم يكن كل هذا في حسباني سوى مراهقة سرعان ما تنطفيء وتنسى .

كل هذا يبدو الان قديما ممعنا في قدمه .. كانه حلم ، ولو لم تكن مهدية امامي بثوبها الفلاحي الاحمر اللون المتسخ الذيل ، وبجديلتيها السوداوين اللتين كنت احب ان اداعبهما ، وبعينيها الواسعتين الباكيتين. لظل جزء كبير من ماضي مدفونا في صدري : البئر التي تبتلع كل الاشياء ، حتى الاحزان والافراح .

قالت :

ـ كفي عن البكاء يا مهدية . لماذا تبكين ؟

قالت :

ـ هي دموع قليلة سرعان ما تجف

قالت :

ـ ما خلقت عيناك للدموع يا مهدية .

ـ تعلمت عيناي البكاء اخيرا .

وشعرت بالاسى ، وقدرت ما تثيره وقفتي من حزن ، فقلت :

ـ حسبنا الان اننا تلاقينا يامهدية . لنفترق ..

قالت :

ـ ستذهب الى حيث شجرة الجوز ، شجرتنا ، شجرتي الحبيبة الحنون ...

وارسلت مهدية دفعة جديدة من الدموع ، ولكن صوت النشيج كان قد مات .

كان المطر قد عنف تهطاله ، والريح تصفر ، والجسد الصغير الملتف بالثوب الاحمر اللون يهتز من البرد ومن الحزن . وكنت اذ انقل قدمي في بطء شديد الى حيث هيفاء تنتظرني تحت ظلال الشجرة الضخمة العجوز التي لم تكن ملكها قط ، اشعر انني اتحول شيئا فشيئا الى جثة . كان وجهي يزداد امتقاعا ، ويداي تتصلبان ، وقلبي يكف عن الخفقان ..

وكانت السماء ، وقتئذ ، تحتكر البكاء.

عادل ابو شنب

من منشورات دار الآداب

الحي اللاتيني(رواية) للدكتور سهيل ادريس

الخندق الغميق (رواية) للدكتور سهيل ادريس

دار الآداب ص.ب ٤١٢٣